

بافر من الفلسفة الإسلامية

الفيلسوف ابن مسكويه

وكتاب تهذيب الأخلاق ونظير الاعراق

للأستاذ محمد حسن ظاظا

—>>><<<—

« ولا ينبغي على أية حال أن شكر له فقط محاولته إقامة نظام خلقي بعيد عن نزعات الدينين وزهد التصوف ، بل ينبغي كذلك أن نجل له ، في الرسم الذي وضعه ، الدوق السليم واتقافة الواسعة »
(دي بور)

نعرض اليوم بإيجاز لفيلسوف إسلامي أخرج للناس دستوراً إيجابياً أخلاقياً طريفاً قوامه المنطق الصحيح والدوق السليم ، بحيث لو تنموه في حياتهم لتألوا به السعادة الحق دنيا وأخرى . ونعني به الفيلسوف « أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه » صاحب « كتاب تهذيب الأخلاق وتهذيب الاعراق » ، وهو الكتاب المعروف الذي نصحه الإمام « محمد عبده » بتدريسه في الأزهر إلى جانب الإحياء للغزالي ، والذي قام المرحوم « علي باشا رفاعه » بنشره وتبويبه ، والذي شرع الزعيم الخالد « سعد زغلول » في اختصاره والتعليق عليه دون أن يتعه

١ - عصره

عاش ابن مسكويه في العصر العباسي الثالث أي في العصر الذي عتاز بشدة ضعف الخلافة العباسية وقيام دويلات لا يعترف أكثرها للخليفة بنير السلطة الاسمية . وبهنا من هذه الدويلات الدولة البويهية (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ) لأن ابن مسكويه عاش ومات في كنفها . وكانت هذه الدولة مظهراً قوياً للنشاط الفارسي الذي كان يرى إلى الانفصال عن حكم العباسيين واستعادة مجد الفرس القديم . وكان ملوكها يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا عظماء الأدباء كالمهلب وابن العميد وابن عباد وغيرهم . وكانت مجالسهم أبداً حافلة بكبار الشعراء والعلماء والفلاسفة ومن على شاكلتهم . لذلك لا عجب أن عتاز هذا العصر بشغ الملم ، وتكوين الماغم اللغوية ، واستقرار الانشاء على أسلوب مثالي ، ولا عجب أن تنمو الفلسفة وتزهر ، وتمتقر

قواعد الطبيعيات والطلب ، وبتسع خيال الشعراء ، ويظهر الشعر الفلسفي ، وينمو فن التاريخ والجغرافيا ، ويظهر النقد الأدبي ، وتؤلف القصص المجازية ، وتنتشر المكاتب حاوية لألوف المخطوطات^(١) أجل ولا عجب أن يظهر أمثال ابن سينا وابن مسكويه والهمذاني والحوارزمي ، والمتنبي وأبي فراس والأصفهاني والقالبي والتمالي والتوحيدى والصابي والشرى والرضى والتونخي والطبري على أن الحالة الخلقية لذلك العصر لم تك لتساير الحالة العلمية رقيقاً ونجاحاً . ويلاحظ ذلك في ميكيا فيلية السياسة وعبث الكبراء والمظالم على السواء . وما بالك بحكم قاس عفيف يصلب ويشمل ويتر ويستمع للشوايات والدعوات ، وتمتد يد بطشه وغدره إلى الوزراء والأمرء والسلاطين القريب منهم والبعيد ؟ وما بالك بمظالم وكبراء يقول « الثعالبى » في أحد مجالس لهوم : « أنهم أخذوا بفن من الانخلاع عجيب ، وبطريق من الاسترسال رحيب ؟! » ويقول في مجلس آخر :

فكان الذى لولا الحياء أذعته ولاخير في عيش الفتى إن تسترا
وفي مجلس ثالث :

« ولم نزل نشرب الراح إلى أن ياح الصبح بسره ، وقام كل منا يتعثر في سكره »^(٢) ؟!

٢ - حياته

وعسير جداً أن تتلخص حياة ابن مسكويه فيما ترك من كتب أو فيما ذكر عنه الكتاب والمؤرخون . وكل ما قد استطعنا كشفه من المؤلفات والتراجم المديدة التي اطلعنا عليها هو أنه ولد حوالى عام ٣٣٠ هـ ومات في ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٣٠ م) ، وكان مولده « بالرى » في أسرة فارسية^(٣)

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى زيدان
(٢) وروي صاحب شذرات الذهب أن الوزير المهلبى التوفى سنة ٣٥٢ هـ كان يجتمع عنده القضاة والفقهاء ليلتين في الأسبوع ، وما فيهم إلا أبيض المحبة طويها ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولد السماع وأخذ الطرب منهم مأخذة خلغوا ثوب الوفا ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس من ذهب مملوء شراياً قطربلياً ، فيفسح لحيته فيه بل يتقمعها حتى تصرب أكثره ، ثم يرش بعضهم بعضاً ويرقصون بأجمعهم ! - (ص ٣٦٣ ج ٢) -
(٣) أما أقوال الثعالبى الآفة فيالتيمة ()
(٤) ومعنى مسكويه بالفارسية « رائحة المسك » كما أن معنى سيويه « رائحة التفاح »

وبقتصد في مآرب بدنه حتى لا يجعله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ، ويحارب دواعي نفسه الدميعة حتى لا تفهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه ، ويستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة^(١) ... الخ .. أقول تجلت هذه النزعة في ذلك العهد الطريف ، وتجلت كذلك في كتابه التاريخي المعروف « نيجارب الأمم وعواقب الهمم » وهو الكتاب الذي فضح فيه بجرأة وصراحة الكثير من ذائل السلاطين الذين خدم أولادهم وأحفادهم^(٢) كما تجلت على الخصوص في كتابه العظيم الذي تحدثك عنه الآن :

٤ - كتاب تهذيب الأخلاق ونظير الأعراف

ويستبر هذا الكتاب أهم كتبه الأخلاقية وأطرفها وأكملها^(٣) ونظراً لأن ابن مسكويه كان أديباً شاعراً يجذق العربية والفارسية على السواء ، فإن أسلوبه فيه يمتاز بالسلاسة والركة والمذوبة على غير عادة الفلاسفة الإسلاميين . وقد أعجب « الطوسي » به كل الإعجاب فترجمه إلى الفارسية وقال عنه :

بنفسى كتاب حاز كل فضيلة وصار لتكميل البرية ضامنا مؤلفه قد أبرز الحق خالصاً بتأليفه من بعد ما كان كامناً ووسمه باسم الطهارة قاضياً به حق معناه ولم يك مانئاً لقد بذل المجهود لله دره لما كان في نصيح الخلائق خائناً والكتاب بعد هذا است مقالات تدور كما قلنا حول الأخلاق الإيجابية للإنسان ، أى الأخلاق التي تليق به من حيث هو حيوان ناطق . ولذلك نراه يفرق في المقالة الأولى بين النفس

(١) أنظر الإرشاد لياقوت ، والمقاسبات لسندونى

(٢) وقد أعجب المستشرقون بذلك الكتاب وبقته العلمية فطمعته لجنة جيب التذكارية ، وعجده الأستاذ « مرجليوت » في مقدمة كتابه الإنجليزي (سقوط الخلافة العباسية) وفي كتابه « محاضرات في مؤرخى العرب » (٣) وله غير هذا الكتاب كتاب « جاويدان خرد » أى — العقل الأزل — جمع فيه آداب العرب والفرس والهنود والروم وجعله مصداقاً للقوانين الحقيقية التي ذكرها في « التهذيب » ، وله كذلك رسالة صغيرة في السعادة كتبها لصديقه ابن العميد لا تخرج في معناها عما في التهذيب ، وكتاب ثالث يسمى « بالفوز الأصغر » ويعتبر أساساً لفلسفته الحقيقية وإيمانه الدينى الفلسفى . وهذان الأخيران مطبوعان . أما الأول فما يزال مخطوطاً بمكتاب أوروبا ولاسيا مكتبة باريس الأهلية

شريفة . وسرعان ما يترك والده أمه فيبقى هو راعياً لها حتى تزوج بغير أبيه فيتركها وينزح إلى بغداد شاباً . وهناك اتصل بالوزير « المهلبى » حوالى سنة ٣٤٨ هـ ويدخل في خدمته ككاتب لسره ، ويبقى إلى جانبه بنادمه ويسامره حتى عام ٣٥٢ هـ وهو عام وفاة الوزير ؛ ومن ثم يعود إلى الري حيث يلتحق بخزانة الوزير العظيم « ابن العميد » وينال ثقته ومحبته وصدافته ، ويبقى معه حتى عام سنة ٣٦٠ هـ لينتقل بعد وفاته إلى خدمة ولده الوزير « أبى الفتح » . وقد بقى في خدمة هذا الشاب حتى تنكر له الدهر ودخل الوزير السجن سنة ٣٦٦ هـ . ثم التحق بمدت بخدمة الملك الظافر « عضد الدولة » الذى استولى على بغداد وغدر بسلاطنتها عن الدولة أشنع غدر ، كما التحق بعده بخدمة مسمام الدولة وشرفها حتى عام ٣٧٩ هـ ، وهو العام الذى دخل فيه في خدمة « بهاء الدولة » واختص به وعظم قدره عنده . وهكذا انتقل ابن مسكويه من خدمة وزير إلى سلطان حتى هرم وشعر بدنو الموت ، فانتقل كما يقول صاحب « روضات الجنان » إلى « أصبهان » حيث مات عام ٤٢١ هـ ، وحيث دفن في « محلة حاضو » بقبر مشهور معروف ...

٣ - ثقافته وأهم أوقباته

وقد تنقف ثقافة أديبة واسعة ، ونهل من مجالس العلم ومكتباته ، وعنى عناية خاصة بالأخلاق فدرس حكمها عند الفرس والعرب والهنود والروم ، وجمع ما رآه من هذه الحكم وأخرجه في كتاب لا يزال مخطوطاً . هذا إلى أنه قرأ ما قد خلفه أرسطو وأفلاطون وجالينوس في هذه الناحية وعحصه تمحيصاً . وكأما دفعته تربيته العائلية السليمة ، وقلبه الكبير الحى ، وتجربته الألمية في مجالس السلاطين والوزراء ، إلى إنقاذ عصره والمصور التي تليبه من السياسة الخرقاء والأخلاق الممتلة ، فراح يقرأ في الأخلاق ويؤلف ، ويخرج للناس كتباً فيها من النطق الصحيح ما يهديهم إلى « كالم الإنسان » ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفضائل والعلوم لتتم لهم السعادة التي ينشدونها عبثاً في تلك الخيرات الوهمية الخارجية ، خيرات « الكون والفساد » . وقد تجلت هذه النزعة فيما ترك من عهد عاهد فيه نفسه « أن يجاهدها ويتفقد أمرها ما استطاع ، فيمف وتشجع ويحكم ،

السعادة الحق دنيا وأخرى « ونختتم هذا التعريف الموجز بقول
ابن مسكويه لابن العميد :

لا يمجسناك حسن القصر تنزله

فضيلة الشمس ليست في منازلها

لوزيدت الشمس في أبراجها مائة

ما زاد ذلك شيئا في فضائلها

أو بقوله للعميد الملك :

فانظر إلى سير القوم الذين مضوا

والحظ كتابتهم من باطن الكتب

تجد تفاوتهم في الفضل مختلفا

وإن تقاربت الأحوال في النسب

هذا كنتاج على رأس يعظمه

وذاك كالشعر الجاني على الذنب (١) !

محمد حسن ظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) انظر ارشاد الأديب لياقوت — ترجمة ابن مسكويه .

والجسد تفريقاً ثبت به روحانية الأولى وخلودها واحتياج قواها
المختلفة إلى كمال خاص يتفق وما فيها من عقل مسيطر وفكر
مقدس . وزاء يتناول في الثانية خلق الانسان وقابليته للتغير
والتهذيب ومدى أثر المعرفة في العمل الخلقى ، ويتأدى من ذلك
إلى « المنزلة الرفيعة » الجديرة بالانسان وماذا عسى أن يعوقنا
عنها . أما المقالة الثالثة فلا تتناول غير موضوع السعادة بالبسط
والناقشة والمرض . وأما المقالة الرابعة فتحدد الأعمال الخلقية
وتميزها عن غيرها وتنتهي بنا إلى المقالة الخامسة التي يبسط فيها
أنواع المحبة بوجه عام ومحبة الصديق على الخصوص . وأخيراً
تأتى المقالة السادسة لتبين لنا طريق حفظ الصحة على النفس
ومعالجتها إذا مرضت

ويطول بنا المقام إذا أردنا أن نبين وجه الطرافة والجمال
والانساق في هذه المقالات البعيدة في منهجها عن منهج الدينين
— (كالبصرى في كتاب أدب الدنيا والدين (١)) — ، والمعتمدة
في طريقتهما على الاستقراء العلمى الدقيق الذي « يكاد » ينطق
بالتطور ، والذي يرسل البصر في الكون كله ويحدد للإنسان
ماهيته وعمله فيه !

أما مصادره في ذلك الكتاب فهي تلك الثقافة الخلقية الواسعة
التي استمدتها من الأمم الأربع ، والتي بلوح فيها القرآن متفقا
مع أرسطو وأفلاطون وجالينوس وغيرهم من حكماء اليونان على
الخصوص .

وإذا حاولنا أن نمقد مقارنة بين هذا الكتاب وبين كتاب
أرسطو « إلى نيكوماخوس » : وجدنا ابن مسكويه يبرز العلم
الأول أحيانا في الوضوح والانسجام ، ويتفوق عليه في فصول
خاصة كفصل الصداقة والصديق ، ويزيد على فصوله فصولا
أخرى جوهرية كفصل « دفع الأحران » و « حفظ الصحة
على النفس السليمة » ! !

لذلك نصح القارئ العزيز بقراءة هذا الكتاب مرة
ومرة ومرة ، ويجعله دستوراً له في حياته كإنسان يرنو إلى

(١) انظر على الخصوص كلامه في دفع النعم والحزن ووجوب عدم
الخوف من الموت ، أو كلامه في خلود النفس ، أو رأيه في اختيار الصديق
والاحتفاظ به .

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائف

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربى في طريقته ، وفي
أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى
العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون
مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل
صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زنائى

نمته ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة